تربيتنا

مشهد مروّع شاهدته بالأمس، ظاهرة مُقلقة صدمتني واصابتني في الصميم. من أكثر المشاهد المؤلمة التي رأيتها في السنوات الأخيرة بكل ما يخص العلميّة التعليميّة التربويّة.

ستتساءلون ماذا رأيت؟ أنتم بالتأكيد لا تستغربون شيئًا في هذه الأيام ولا تستبعدون شيئًا عن هذا الجيل السيء.

رأيت طلابًا من مدرسة كاملة، في بلدة محترمة جدًا ومحافظة جدًا جدًا، ليس طالبًا او اثنين، بل عشرات الطلّاب، يخرجون من المدرسة كأنهم في مظاهرة صاخبة، هؤلاء الطلّاب قاموا وبشكل جماعي بتمزيق كتب الدراسة وأشعلوا النار فيها، على الملأ وبدون أيّ خوف أو وجل.

كانت العمليّة صادمة ليس فقط لأنني رأيت الطلّاب يحرقون "خير جليسٍ في الزّمان"، إنّما أيضًا بسبب التصفيق والهتافات والتّشجيع من قبل مجموعة كبيرة من الطلّاب المتحمسين لهذا "الإنجاز الكبير".

عملية حرق الكتب أعادتني سنوات طويلة إلى الوراء، إلى إبان حكم الحزب النّازي في ألمانيا. كانت عمليات حرق الكتب عبارة عن حملة من قبل اتحاد الطلّاب الألماني في ألمانيا والنمسا. في الثلاثينات من القرن الماضي. وكانت الحملة

تستهدف حرق الكتب التي يعتقد الطلّاب أنها ذات صبغة تخريبيّة أو تمثّل أيديولوجيات معارضة للنازيّة.

لكن السؤال الذي يطرح نفسه هنا: أي أيديولوجيّة تخريبيّة تمثّلها الكتب التي نتعلّمها في المدارس؟ أشك في ذلك فهذه الكتب لا علاقة لها بالسياسة أو نظام الحكم فقد تكون كتب علميّة أو دينيّة. لم تكن كتبًا منحلّة أو مدمّرة، كانت مجرد كتبٍ تعليميّة، نتاج تعب وجهد معلّمين أكفّاء، بذلوا جلّ جهدهم وتعبهم من أجل إيصال أفكارهم ومعلوماتهم لطلّابنا.

هل يكره طلّابنا الكتب والمدارس إلى هذا الحد؟! هل أهلهم بحالة اقتصاديّة من الرفاه والثراء تسمح لهم بإحراق الكتب؟ أين التربيّة؟ أين سلطة الأهل؟ أين الحياء والخجل؟ أليس هم من صاموا شهر رمضان قبل شهرين؟ ألم يكن هؤلاء الطلّاب هم من نادوا بالشّعارات الرنّانة والمتحمّسة بحق الوطن؟

الكثير من الأسئلة التي تدور برأسي وتؤرقني وتقضّ مضجعي وعليها أن تقضّ مضجعكم كآباء وأمهات، إنها تدقّ ناقوس الخطر لكل واحد منّا.

أنا متأكد أنّ هؤلاء الطلّاب عندما قاموا بحرق هذه الكتب لم يفكّروا بالآية القرآنيّة: "اقرأ باسم ربك..."، ولم يفكّروا بالتربيّة والأخلاق، ولم يفكّروا بعاقبة عملهم. هل فشلنا في التربيّة؟ نعم فشلنا فشلًا ذريعًا.

للأسف انجررنا في تعليمنا إلى تحقيق الإنجازات العلميّة ونسينا القيم والأخلاق. أنا لا ألوم طلّابنا فقد انتهت وظيفة الكتاب عند انتهاء الفصل والامتحانات وقد

تحقق النجاح أو الفشل. لا، لا تقولوا إنّ الطلّاب الفاشلون هم من قاموا بذلك، كذلك الطلّاب الجيّدون، بل حتى المتفوّقين منهم، فلا فرق بينهم.

اقترح أن نُعيد حساباتنا من جديد، في البيوت والمدارس، في المساجد والكنائس. أن نعيد النظر إلى تربيتنا، إلى قيمنا وأخلاقنا فنحن القدوة لهذا الجيل، فهذا الجيل لم يأتينا من كوكب آخر. هذا الجيل هو نتاج تربيتنا ونظرتنا للأشياء.

لن أختم حديثي بطرفة أو نادرة كما اعتدت، فهذا الأمر لا يحتاج إلى مزاح أو ضحك، ولكن سأنهي حديثي بجملة خطيرة كتبها "هاينريش هاينه" في مسرحيته الشّهيرة "ألانسور" حيث قال: "حيث يحرقون الكتب، سوف يقومون في النهاية أيضًا بحرق النّاس".

دمتم بخير

أ.أيمن جبارة